

مَكَانَةُ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ
وَحَاجَةُ طَالِبِ الْعِلْمِ إِلَيْهَا

أَلْقَاهَا

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ ابْنِ طَوْقِ الْمُرِّيُّ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين (١).

أمّا بعدُ فهذا لقاءٌ عن مكانة العربية وحاجة طالب العلم إليها. علمُ اللغة علمٌ جليل القدر، غزير الفائدة، كثير العائدة على طالب العلم، وكيف لا وهو اللسان العربيّ الذي نزل به القرآن الكريم وتكلّم به النبيّ صلى الله عليه وسلم؟! فهو من أصلِ علوم الشريعة وأعلقها بالكتاب والسنة.

وإذا كانت الشريعة عربيّة فإنّه لا يفهمها حقّ الفهم إلّا من فهم العربية حقّ الفهم. لذا فمن تعلّم اللغة العربيّة ابتغاءَ فهم الكتاب والسنة وتعلّم الشريعة فإنّه يظفر إن شاء الله بما ورد في فضل طلب العلم الشرعيّ من أدلّة الكتاب والسنة.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (فإنّ نفس اللغة العربيّة من الدّين، ومعرفتها فرض واجب؛ فإنّ فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلّا بالعربيّة، وما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب)؛ لذلك فإنّه لا يستغني عن علوم العربية متفقه ولا

(١) أصل هذه الأوراق لقاء علمي نظّمته أكاديمية رسوخ، كان في ليلة السبت الثالث من جمادى

الأولى عام ١٤٤٧ هـ، وقد اطلع ملقيها على هذه الأوراق قبل نشرها (رابط اللقاء) (رابط آخر).

حديثي ولا طالبٌ لأي علمٍ من علوم الشريعة؛ فما من علمٍ من علوم الشريعة إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يُدفع ومكشوف لا يتقنع.

وجه هذا الافتقار البين المكشوف: أن معاني هذه العلوم لا تُعرف على الحقيقة إلا بمعرفة ألفاظها، والوصول إلى معرفة ألفاظها: علم العربية.

وواقع حال العلوم الشرعية يشهد بأنه كلما كان طالب العلم الشرعي أكثر تبخرًا في علوم العربية كان فهمه للعلوم الشرعية ونزعه لمعانيها أقرب وأضبط.

وعلماء أصول الفقه ينصّون في كلامهم عن شروط الاجتهاد على أن من شروط المجتهد: أن يكون عنده قدرٌ صالحٌ من علوم العربية؛ يستعين به على فهم الكتاب والسنة، بل يقول الشاطبي: (لو فرضنا مبتدئًا في فهم العربية فهو مبتدئٌ في فهم الشريعة، أو متوسطًا فهو متوسطٌ في فهم الشريعة)، قال: (فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة).

وقد قال الجريري: (أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه!) وقد فسروا ذلك بأنه كان صاحب حديث، وكتاب سيبويه يُتعلّم منه النظر والتفتيش؛ فالعلم باللغة يعين على فهم الأدلة واستنباط الأحكام منها استنباطًا صحيحًا.

فلا يستغني عن علم العربية طالب علم أصول الفقه ولا طالب علم الفقه؛ بل إن ثمّ مسائل فقهية من سبب الخلاف فيها: اختلافهم في الإعراب، كحديث «**ذَكَاءُ الْجَنِينِ ذَكَاءُ أُمِّهِ**»: فمن قرأه «**ذَكَاءُ الْجَنِينِ ذَكَاءُ أُمِّهِ**» بالرفع قال: إذا ذُكِّيت الشاة -مثلاً- فخرج الجنين من بطنها ميتًا فهو حلال؛ لأنّ ذَكَاءُ أُمِّهِ ذَكَاءُ له؛ وهذا مذهب الجمهور، خلافاً للحنفية الذين قالوا: إنه ميتة، وقرأوا الحديث بالنصب: «**ذَكَاءُ الْجَنِينِ ذَكَاءُ أُمِّهِ**» فهنا

كلمة "ذكاة" الثانية منصوبةً بنزع الخافض؛ والتقدير: ذكاة الجنين إذا خرج حيًّا كذكاة أمه، فإذا خرج ميتًا فهو حرامٌ لا يؤكل.

ومن سبب الخلاف في هذا بين الفقهاء: اختلافهم في ضمةٍ وفتحَةٍ! وكذلك طالب علم الحديث لا يستغني عن علم اللغة، وقد قال الأصمعي: (أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو: أن يدخل في قوله -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»)، قال: (لأنَّه -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يلحن؛ فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه).

وقد قال العراقي في «ألفية الحديث»:

وَلْيَحْذَرِ اللَّحَّانَ وَالْمُصَحِّفَا عَلَى حَدِيثِهِ بِأَنْ يُحَرِّفَا
فَيَدْخُلَا فِي قَوْلِهِ: «مَنْ كَذَبَا» فَحَقُّ النَّحْوِ عَلَى مَنْ طَلَبَا

وفي «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي: ترجم بقوله: (التَّغْيِبُ فِي تَعْلُمِ النَّحْوِ وَالْعَرَبِيَّةِ لِأَدَاءِ الْحَدِيثِ بِالْعِبَارَةِ السَّوِيَّةِ).

وأخرج فيه عن وكيع -رحمه الله- أنه قال: أتيتُ الأعمشَ أسمع منه الحديث وكنت ربَّما لحنت فقال لي: "تركت ما هو أولى بك من الحديث" فقلت: "وأَيُّ شيءٍ أولى من الحديث؟!" فقال: "النَّحو" قال وكيع: "فأملئ عليَّ الأعمش النَّحو ثمَّ أملئ عليَّ الحديث".

وفيه: أنه جاء سيبويه إلى الخليل فشكا إليه حماد بن سلمة؛ قال: (سألته عن حديث هشام بن عروة عن أبيه في رجلٍ رَعُفَ) قالها بضمِّ العين؛ قال: (فانتهرني وقال لي:

"أخطأت؛ إنما هو رَعَفَ" - أي بالفتح -؛ فقال له الخليل: (صدق، أتلقي بهذا الكلام أبا سلمة؟!).

وفيه: أن أبا زيد النحوي قال: (كان الذي حداني على طلب الأدب والنحو: أنني دخلت على جعفر بن سليمان فقال: "اذنه" فقلت: "أنا دَنِي" فقال: "يا بني؛ لا تُقل: "أنا دَنِي" ولكن قل: "أنا دان" في أخبار كثيرة ذكرها الخطيب البغدادي في هذا الموضوع.

وكذلك دارس علم الاعتقاد حاجته إلى العربية بيّنة؛ فالجهل بها كان سبب وقوع كثير من البدع والانحرافات.

قال أبو عمرو بن العلاء: (أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية).

وقال الحسن البصري: (أهلكتهم العجمة).

وحزمة الكِنَانِي في كتابه «الحيدة» لما ردّ على المنحرف بيّن أن سبب ضلاله: هو الجهل بسنن كلام العرب.

وعثمان بن سعيد الدارمي كان يردُّ على بشر المريسي فساد مُعْتَقَدَه باللُّغة؛ وقال في ردّه: (فإن كنت لا تحسن العربية فسَلْ مَنْ يُحسنها ثم تكلم).

وكذلك في التفسير، وقد قال الإمام مالك: (لا أوتي برجل يُفسّر القرآن وهو لا يعرف العربية إلّا جعلته نكالا)؛ وذلك لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وكيف يؤمن على تفسير القرآن من لا يؤمن على اللسان العربي؟!

وكذلك في القراءات وفي علوم القرآن ما أكثر المسائل التي يُحال فيها على النحو واللغة، والتي لا يفهمها إلّا من درّس العربية!

مِنْ أمثلتها في عِلْم الوقف والابتداء: أَنَّ مِنْ قواعد الوقف: أَنَّهُ لَا يُوقَف عَلَى المضاف دون مَا أُضِيفَ إِلَيْهِ، وَلَا عَلَى المنعوت دون النَّعْتِ، وَلَا عَلَى الرَّافِع دون المرفوع، وَلَا عَلَى النَّاصِب دون المنصوب، وَلَا عَلَى المُبْدَل منه دون البدل، إِلَى آخِر مَا يَذْكُرُونَهُ. وَهَذِهِ كُلُّهَا مِصْطَلَحَاتُ نَحْوِيَّةٍ، لَا يَتَبَيَّنُهَا إِلَّا مَنْ تَعَلَّمَ النَّحْوَ وَعَرَفَ مِصْطَلَحَاتِهِ.

لِذَلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا تَكُونَ الْعَرَبِيَّةُ بِعِلْمِهَا أَهْوَنَ مَنْظُورٍ إِلَيْهِ عِنْدَ طَالِبِ الْعِلْمِ؛ بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُؤَلِّيَهَا عَنَاتِهِ وَيَجِدَّ فِي تَحْصِيلِهَا.

وَكَلَّمَا أَزْدَدْتَ عِلْمًا بِاللُّغَةِ أَزْدَدْتَ فَهْمًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا يَقِفُ ذَلِكَ عِنْدَ حَدٍّ.

وَعِلْمُ الْعَرَبِيَّةِ كَثِيرَةٌ؛ أَهْمُهُمَا: أَرْبَعَةُ عِلْمٍ؛ هِيَ:

* النَّحْوُ.

* وَالصَّرْفُ.

* وَالبَلَاغَةُ.

* وَعِلْمُ مَتَنِ اللُّغَةِ.

وَوَجْهَ هَذِهِ الْقِسْمَةِ: أَنَّ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ مَفْرَدَاتٌ وَتَرَائِيكَ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُنْظَرُ إِلَيْهِ

مِنْ جِهَةٍ مَبْنَاهُ وَمِنْ جِهَةٍ مَعْنَاهُ:

* فَالنَّظَرُ إِلَى الْكَلِمَةِ الْمُفْرَدَةِ مِنْ جِهَةٍ مَبْنَاهَا: هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِعِلْمِ الصَّرْفِ، وَمِنْ جِهَةٍ

مَعْنَاهَا: هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِعِلْمِ الْغَرِيبِ (عِلْمِ مَتَنِ اللُّغَةِ).

* وَالنَّظَرُ إِلَى الْكَلَامِ الْمُرَكَّبِ مِنْ جِهَةٍ مَبْنَاهُ: هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِعِلْمِ النَّحْوِ، وَمِنْ جِهَةٍ مَعْنَاهُ:

هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِعِلْمِ الْبَلَاغَةِ.

وهذه العلوم تُدرّس بتدرّج، بل العلم كلّ درجاتٍ ومناقلٍ ورُتبٍ، يدرسها طالب العلم شيئاً فشيئاً حتّى يُحكّمها ويفهمها فهماً صحيحاً، ثمّ يبنى التّالي على الأوّل، وهكذا حتّى يَتِمّ البناء.

والمرحلة الأولى في الفنون المقصودُ بها: إعطاء تصوّرٍ عامٍّ عن الفنّ وأبوابه ومهمّات مسائله، وتُجنّبُ كُتُبُ هذه المرحلة: ذِكرَ الخلافِ والإطالة في الاستدلال والتّعليل.

والجادة في علم النّحو: البدء بمتن «الآجرومية» لابن آجروم؛ وهو متنٌ كُتبَ له القبول بين أهل العلم وطلّابه.

ومن أحسن أنظامه: نظم محمّد بن أبّ المزمريّ التّواتي رحمه الله.

وهي منظومة نافعة؛ تمتاز بسلاستها، وحُسنِ سبكها، ووفائها بما في النّثر، وعناية ناظمها بالأمثلة، واختصارها؛ إذ إنّها تقع في مئة وبضعة وخمسين بيتاً، وبعضُ من نظم «الآجرومية» زاد نظّمه على المئتين.

والنّظم أسهل في الحفظ من النّثر، وأيسر في الاستحضار، وأعلق بالذهن؛ قال ابن أبي الحديد في نظم «الفصيح»:

وَأَسْهَلُ الْمَحْفُوظِ: نَظْمُ الشُّعْرِ لِأَنَّهُ أَحْضَرُ عِنْدَ الذُّكْرِ
(عِنْدَ الذُّكْرِ): أَي عِنْدَ التَّدَكُّرِ.

وقال السّفّارينّي:

وَصَارَ مِنْ عَادَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَعْتَبُوا فِي سَبْرِ ذَا بِالنَّظْمِ
لِأَنَّهُ يَسْهَلُ لِلْحِفْظِ كَمَا يَرُوقُ لِلسَّمْعِ وَيَشْفِي مِنْ ظَمَا

لذلك نَظَمَ محمدُ بْنُ أَبٍ «الآجرومية»؛ كما قال في ديباجتها:

وَبَعْدُ فَالْقَصْدُ بِذَا الْمَنْظُومِ تَسْهِيلُ مَثُورِ ابْنِ أَجْرُومِ
لِمَنْ أَرَادَ حِفْظَهُ وَعَسُورًا عَلَيْهِ أَنْ يَحْفَظَ مَا قَدْ تُثِرَا

والمنهجيّات ليست توقيفيّة؛ فَمِنَ الكتب الحديثة الّتي قد تُدرّس في هذه المرحلة بدل «الآجرومية» أو «نَظْمِهَا»: كتابُ «النَّحو الصَّغِير» للشيخ سليمان العيونيّ حفظه الله، وهو كتابٌ نافع؛ صَنَفَهُ للمبتدئين وحرَّص على حُسْن ترتيبه، ووضوح عبارته، وسهولة مضمونه، وكان له ذلك، وقد استفاد منه كثيرٌ مِن طلبة العلم وصاروا بعد دراسته يجدون حلاوة عِلْم النَّحو، ويحرصون على الاستزادة منه؛ لأنَّ مَنْ فَهِمَ شيئًا حرَّص على الاستزادة منه والتَّوسُّع في أبوابه والخوض في مسائله.

وقد نَظَّمه الشَّيْخ في «وَحْيِ المَنَام» في مئة بيت.

ثمَّ ينتقل الطَّالِب إلى المرحلة الثَّانية، والمُرْشَّح للدراسة فيها: متن «قطر الندى وبلّ الصَّدى» للعلامة ابن هشام الأنصاريّ رحمه الله، وهو مِن المتون المختصرة النَّافعة؛ تميَّز بدقَّة العبارة مع وفرة المسائل، ما اعتنى به طالب عِلْم ففهم مسائله وضبطها إلَّا وجد له عظيم الأثر في فَهْم النَّحو؛ ولعظيم منفعته لا تكاد تجد عالمًا له عنايةً بالنَّحو إلَّا وهو كثير الإطراء له والثناء عليه، وقَلَّ أَنْ تجد جهةً مِن الجهات لها عناية بالنَّحو إلَّا ومن مُقرَّراتها «شرح ابن هشام» على مَتْنِهِ هذا.

وقد ذكر ابن هشام -رحمه الله- في ديباجة شَرْحه أَنَّ ما كتبه على متن «قطر الندى» وافيٌّ بِبُغْيَةٍ مَنْ جَنَحَ مِن طُلَّابِ عِلْمِ العَرَبِيَّةِ إِلَيْهِ.

ثمَّ ينتقل إلى المرحلة الثالثة فيدرس «الخلاصة» المشهورة بـ«ألفيّة ابن مالك»، وقد حظيت هذه «الألفيّة» بقبولٍ واسعٍ لدى أهل العلم وطلّبتِه؛ لِمَا امتازت به من سهولة اللَّفظِ، وإحكامِ الوضعِ، وحُسْنِ التَّرتيبِ، وجودةِ السَّبكِ، والإحاطةِ بمُهمَّاتِ مسائلِ النَّحوِ ومسائلِ صَرْفِ الأسماءِ، كُلُّ ذلك مع الإيجازِ، وقد كَثُرَ إقبالُ العلماءِ على «ألفيّته» هذه حتّى طُوِيَ ذِكْرُ كثيرٍ من المصنّفات قبلها؛ حتّى إنّه لو لم يُشر في مُقدِّمتها إلى «ألفيّة ابن معطي» التي كانت مشتهرةً في وقته ما عرفها كثيرٌ من المتخصّصين فضلاً عن غيرهم.

وقد كثرت عناية العلماء بها ما بين شارحٍ وناثرٍ ومُعربٍ ومختصرٍ، وما ذاك إلا لعظيم فائدتها.

العلم الثّاني: علم الصّرف:

والفرق بينه وبين النّحو:

* أن الصّرف يدرس بنية الكلمة واختلافها باختلاف المعاني التي تدلّ عليها؛ مثلاً: (ضَرَبَ): إذا حَوَّلَها إلى لفظٍ يدلُّ على مَنْ فَعَلَ الضَّرْبَ: تقول: (ضارب)، ولمَنْ فَعَلَهُ بكثرة: (ضَرَّاب)، ولمكانه: (مَضْرِب)، واسم المفعول منه -أي مَنْ وَقَعَ عليه الضَّرْبُ-: (مضروب)، وهكذا، فالصّرف يدرس بنية الكلمة، أمّا النّحو: فيدرُس أواخر الكلمات في حال تركيبها من الإعراب والبناء، كما قال في «التّصريفة»:

تَصْرِيفُنَا يَدْرُسُ بِنْيَةَ الْكَلِمِ وَالنَّحْوُ يَدْرُسُ الْكَلَامَ الْمُنتَظِمَ

* وعلم الصّرف الكلام فيه أقلُّ من الكلام في النّحو، والحاجة فيه إلى الحفظ أكثر من حاجة النّحو إلى الحفظ، وحاجة النّحو إلى الفهم أكثر من حاجة الصّرف إلى الفهم، وكلُّ العلوم لا تستغني عن الحفظ والفهم؛ وإنّما الكلام عن النّسبة.

والغالب أنَّ طالب العلم لا يدرُس علم الصَّرف إلَّا بعد أن درَس متًّا في علم النُّحو أو أكثر؛ فيكون قد حصَّل شيئًا من علم العربيَّة.

ومتون المبتدئين في الصَّرف كثيرة، وفي كلِّها خير، ومن أحسنها: «الصَّرف الصَّغير» للشيخ العيوني حفظه الله، وهو على اختصاره جامعٌ لأصول علم الصَّرف ومهمَّاته؛ من الميزان الصَّرفيِّ، وأبنية الأسماء والأفعال، والأحكام الصَّرفيَّة الخاصَّة بالفعل، والخاصَّة بالاسم، والمشاركة بين الفعل والاسم.

وقد نَظَّمه في «التَّصريف»، وهي منظومة نافعة في مئتي بيت، وهي كفيلةٌ لمن أخذها بجِدٍّ بضبطِ أصول علم الصَّرف.

ثمَّ ينتقل إلى المرحلة التي بعدها؛ وهي «لامِيَّة الأفعال» مع ما في «ألفيَّة ابن مالك» من صرف الأسماء.

و«لامِيَّة الأفعال» منظومةٌ لابن مالك -صاحب «الألفيَّة»- بيَّنَ فيها أوزان الفعل وتصاريقه، وكذلك ما ألْحَقَ بالأفعال من الأسماء، وأراد أن يُتِمَّ بها ما وقع من النقص في التَّصريف في «الألفيَّة»، وقد أحاط نَظَّمه هذا بالمُهمِّ من الفنِّ؛ كما قال في أوَّلِه:

وَهَاكَ نَظْمًا مُحِيطًا بِالْمُهِمِّ وَقَدْ يَحْوِي التَّفَاصِيلَ مَنْ يَسْتَحْضِرُ الْجَمَلَا

فإذا جَمَعَ إليها صَرَفَ الأسماءِ مِنْ «ألفيَّة ابن مالك» فقد أحاط بالمُهمِّ من صَرَف الأفعال وصَرَفَ الأسماء.

العلم الثَّالث: علم البلاغة:

وهو يُدرَس بعد دراسة شيءٍ في النُّحو والصَّرف.

وبهذا العلم تُعرَف أسرار العربيَّة، وتُبْرَز دقائقها.

وَمِنْ أَجْلِ مقاصدِ علمِ البلاغة: الوقوف على بلاغة القرآن، وأن تضع يدك على مواضع الإعجاز فيه؛ فهذا العلم يُميط اللثام عن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن، ويُجَلِّي محاسن النظم التي جاء عليها هذا الكتاب العظيم، وقد عَدَّ جماعة من المفسرين العلم بالبلاغة شرطاً في المُفسِّر.

وَمِنْ غاياته وفوائده: تَذَوُّقُ الكلامِ البليغ، وتمييزُ جَيِّدِ القولِ مِنْ رديئه، فعِلْمُ البلاغة هو معيارُ النِّقْدِ الكاشفُ عن خصائصِ الكلامِ البليغ.

وَمِنْ فوائده: اقتدارُ دارِسِه على تأليفِ الكلامِ البليغ، ومعرفة ما يلائم السِّياق مِنْ تقديمٍ أو تأخيرٍ، أو ذِكْرٍ أو حَذْفٍ.

ومع شرف هذا العلم إلا أنَّ العناية به قليلة بين طُلابِ العلم؛ فهو كما قال الباقلاني: (عِلْمٌ قليل الطُّلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرةٌ تحميه، ولا أهل عصمة تفتن لما فيه) مع جلاله قَدْرُه وغازاة فائدته.

ومتون المبتدئين في علمِ البلاغة كثيرة؛ منها: «مئة المعاني والبيان» لابن الشُّحنة، وقد حَذا فيها ناظمها حَذُو كتاب «تلخيص المفتاح» للخطيب القزويني، فنَظَم مباحثه العامة وكثيراً مِنْ مسائله التَّفصيليَّة، ومنظومته هذه على وجازتها - إذ أنَّها تقع في مئة بيت - تقف بك على علوم البلاغة الثلاثة - المعاني، والبيان، والبديع - والمهمُّ مِنْ مسائلها التي ينبغي أن يعرفها طالب هذا الفن.

وفي مرحلتها: «مئة البلاغة» في مئة بيت كذلك؛ «نَظَم الموطأ في البلاغة»؛ كلاهما للشَّيخ سليمان العيوني حفظه الله.

وتنتقل بعد ذلك إلى «الجوهر المكنون» للأخضري، أو تنتقل مباشرةً إلى «تلخيص المفتاح» للخطيب القزويني.

وجهود عامةً البلاغيين بعد الخطيب القزويني حتى يوم الناس هذا تدور -إقراءً وشرحاً وتعليقاً- على «تلخيص المفتاح» للقزويني، وكتابه الآخر الذي هو كالشرح له وهو «الإيضاح»؛ حتى صار كتابه «تلخيص المفتاح» عند البلاغيين بمثابة «مقدمة ابن الصلاح» عن المحدثين، و«جمع الجوامع» عند الأصوليين؛ فكثرت أنظامه وشروحه. وإذا درست البلاغة على هذه الطريقة التي جرى عليها المتأخرون، ووفقك الله لذلك = فلا يفتك أن تقرأ للمؤسس الحقيقي لعلم البلاغة؛ الذي بسط القول فيه بقلمه الماتع، ورفّع قواعده، وأحكم بناءه؛ وهو شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني؛ في كتابيه «دلائل الإعجاز» في علم المعاني، و«أسرار البلاغة» في علم البيان، وقد أرسى فيهما قواعد علمي المعاني والبيان.

ولا يكفي المشتغل بالبلاغة العلم بقواعد البلاغة حتى يجعل بضميمة ذلك أن يحرص على تنمية ذوقه؛ وذلك بالاشتغال بالكلام البليغ قراءةً وحفظاً وسماعاً. لذا سيأتي قريباً إن شاء الله الكلام عن علم الأدب بعد الكلام عن علم متن اللغة. العلم الرابع: علم متن اللغة: أي علم معاني المفردات. ويحصل هذا العلم عن:

- طريقة دراسة أشعار العرب؛ كقصيدة «بانث سعاد»، و«لامية العرب»، والمعلقات.

- وأيضاً بدراسة مباحث معينة من مباحث اللغة؛ كالمثلاث، والمقصور والمدود، ونحو ذلك؛ ويكون ذلك بعد دراسة قدرٍ صالحٍ من النحو والصرف والبلاغة.

- ويكثر مع ذلك من الرجوع إلى معجمات اللغة؛ ك«المصباح المنير»، و«مختار الصحاح»، و«القاموس»؛ يكثر من الرجوع إليها فيما يعرض له في قراءته ودراسته في

يومه وليلته من كلماتٍ يحتاج إلى معرفة معناها في القرآن أو الحديث أو كُتُب الأدب ودواوين الشعر، وقد لا يجد بُغيته فيها فيرجع إلى ما هو أكبر منها؛ كـ «لسان العرب»، و«تاج العروس».

العلم الخامس: علم الأدب:

حرِيَّ بطلبة العلم المشتغلين بفنون الشريعة من فقهٍ وغيره أن يُرطبوا مشاعرهم بنفحات الأدب حتى يعذَّب قَوْلهم، وتَجْمَل عباراتهم، ويحلُّوا تقريرهم لحقائق العلم؛ فتقع من القلوب موقع القطر من الأرض العطشى، كما كان ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره ممن بعده من علماء الأئمة؛ الذين إذا سمعت كلامهم تجد له أريجاً وأنساً في نفسك.

وفي ابن عباس -رضي الله عنهما- يقول حسان -رضي الله عنه-:

إِذَا مَا ابْنُ عَبَّاسٍ بَدَا لَكَ وَجْهُهُ رَأَيْتَ لَهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ فَضْلاً
إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالاً لِقَائِلٍ بِمُتَّظِمَاتٍ لَا تَرَى بَيْنَهَا فَضْلاً
كَفَى وَشَفَى مَا فِي النُّفُوسِ فَلَمْ يَدْعُ لِذِي إِرْبَةٍ فِي الْقَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلاً

وقد قال ابن السيد البطليوسي: (الطريقة الفقهية مفتقرة إلى علم الأدب، مؤسسة

على أصول كلام العرب، وإنما مثلها ومثله قول أبي الأسود:

فَالَا يَكُنْهَا أَوْ تَكُنْهَا فَإِنَّهُ أَخُوهَا غَذَتْهُ أُمُّهُ بِلَبَانِهَا

فينبغي لطالب العلم أن يحرص على تنمية ذوقه؛ وذلك بالاشتغال بالكلام البليغ قراءةً وحفظاً وسماعاً؛ فإنَّ الكلام من الكلام؛ الكلام الذي تقوله وتكتبه وتنظمه هو من

الكلام الذي تقرأه وتحفظه وتسمعه؛ فمن تعود قراءة الكلام العالي جادت قريحته بنحو ما يقرأ.

لكن ينبغي أن تعني أولاً بأفصح الكلام وأبلغه؛ وهو القرآن الكريم، ثم بالصحيح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وتستكثر مع ذلك من المحفوظ؛ فتحفظ ما يروك من الشعر المُنْتَقَى المختار، وتكثر من القراءة في كتب الأدب.

ولا بد أن يضم المتأدب إلى القراءة الأدبية الواسعة: ما لا بد منه من مسائل النحو التي يسلم بها من اللحن في الكلام، ومن مسائل الصرف التي يسلم بها من الغلط في بنية الكلمة، ومن مسائل البلاغة التي يتذوق بها الكلام؛ فيدرس مختصراً في النحو وفي الصرف وفي البلاغة على الوجه الذي سبق، فإذا حصل ذلك مع القراءة الأدبية الواسعة أعانه ذلك على أن يعبر عن مكنوناته وخلجات نفسه تعبيراً واضحاً بيّناً؛ يأخذ بأطراف الحُسن، ويزين بحلى الفصاحة، وقد قال الرَّافِعِيُّ: (ما أرى أحداً يُفلح في الكتابة والتأليف إلا إذا حَكَم على نفسه حُكماً نافذاً بالأشغال الشاقة الأدبية، كما تحكم المحاكم بالأشغال الشاقة البدنية).

المقصود: أنك لن تُنمّي ملكة الأدب في نفسك وتقومها بمثل إدمان القراءة المتأنية لكتب الأدب الحرة الأصيلة مع حفظ ما تستحسنه مما يمرُّ بك من الأشعار وتكرار ما تستعذبه من الأخبار تدوُّنه عندك في غلاف الكتاب أو في أوراقٍ مستقلة، ولن تزال كذلك ترتع في رياض الأدب وتكرع من حياضه وتنتقل من كتابٍ أدبيٍّ إلى آخر حتّى ينقاد منك الطبع، وتنهض الملكة، وترى جمال اللسان، وترتاض على البيان، ويجري قلمك على السداد، وتمدك القريحة بالأمداد.

وأما ماذا يقرأ؟ فعلم الأدب بحرٌ واسعٌ، والقراءة الأدبية تتسم بحسنة؛ وهي أنه ليس فيها ذاك التدريج اللازم الذي تراه في غيرها من الفنون، نعم ينبغي البدء بصغار الكتب قبل كبارها وبيسيرها قبل عويصها.

ومن أحسن ما يُبدأ به من كتب الأدب: كتاب «روضة العقلاء» للإمام الحافظ أبي حاتم ابن حبان صاحب «الصحيح»، وقد بناه على مقدمة وخمسين باباً:
- ذكر في مقدمته غرضه من تأليف كتابه؛ وهو أن يُبين ما يحسن بالعقل استعماله من الخصال المحمودة، ويقبح به إتيانه من الخلال المذمومة.

- ثم عقد خمسين باباً فيما يجب على العاقل التحلي به وما ينبغي له التخلي عنه؛ يقول مثلاً: (باب في إصلاح السرائر)، (باب في لزوم الصدق)، (في لزوم التواضع)، (في الحث على صُحبة الأخيار)، (في زيارة الإخوان)، (في المزاح)، (في الزجر عن مُعادة الرّجال)، (في العفو عن الإخوان)، وهكذا.

يبدأ الباب بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يذكر من الآثار عن السلف والحكم والأشعار ما يشهد لما ترجم به، يروي كل ذلك - من أخبار وآثار وأشعار - بسنده، ويثري ذلك بكلام عالٍ له من خلاصة تجربته وعُصارة فكره لا يقلُّ قيمةً عن النصوص الأدبية التي يُوردها.

ومن كتب الأدب النافعة: كتاب «بهجة المجالس» للإمام الحافظ ابن عبد البر رحمه الله، وقد كان - رحمه الله - موفّقاً في التأليف مُعاناً عليه؛ فهو صاحب «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، و«الاستذكار في مذاهب فقهاء الأمصار»؛ كلاهما في شرح «موطأ الإمام مالك»، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، و«جامع بيان العلم وفضله».

وهو مع ذلك في حلبة الأدب فارس، وكفاك دليلاً: كتابه «بهجة المجالس»؛ وهذا الكتاب موسوعة أدبية، وقد جعله على الأبواب؛ يفتح كل باب من أبوابه بآية أو حديث غالباً، ثم يُورد من أنواع الحكم التي تحيي النفس والقلب، وتشحذ الذهن واللب، وتبعث على المكارم، وتنهي عن الدنايا والمحارم؛ من الأمثال السائرة، والأبيات النادرة، والفصول الشريفة، والأخبار الطريفة، من حكم الحكماء، وكلام الألباء، من أئمة السلف، وصالحي الخلف؛ ليكون لمن وعاه زيناً في مجالسِه، وأنساً لمجالسِه، وشحذاً لذنه وهاجِسِه، فلا يمرُّ به معنى في الأغلب ممَّا يُذكر به إلاَّ حَضَره فيه بيتٌ نادر أو مثلٌ سائر أو حكايةٌ مستطرفة أو حكمةٌ مُستحسنَة؛ يحسُن موقعها في الأسماع، وتخفُّ على النفس والطباع.

وصنيع هؤلاء العلماء والحفَّاظ في عنايتهم بالأدب، وأنَّه لم يكن الاشتغال بمَتْنِ العلم ليحول بينهم وبين تَخْيِيرِ الْمُتَقَيِّ المُسْتَجَادِ مِنَ الأدبِ وتَأْلِيْفِهِمْ فِيهِ وإِجَادَتِهِمْ؛ صَنِعُهُمْ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَكَانَةِ الأدبِ، وأنَّ الاشتغال به ليس عَبَثًا وَلَا مَضِيعَةً لِلْوَقْتِ؛ بَلْ هُوَ مِنْ صَمِيمِ بَنَائِكَ الْعِلْمِيِّ يَا طَالِبَ الْعِلْمِ.

وليس بلازم بل وليس مطلوباً أن تكون لك خُطَّةٌ مُفَصَّلَةٌ واضِحَةٌ فيما تَقْرَأُ فِي الأدبِ؛ الْمُطْلُوبُ: أَنْ تَبْدَأَ؛ فَإِذَا سِرْتَ فِي هَذَا الدَّرَبِ فَإِنَّكَ سَتَعْرِفُ بَعْدَ ذَلِكَ طَرِيقَكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ولا يكن أحدنا كما قال القائل:

طَلَبْتَ الْجَمِيعَ فَفَاتَ الْجَمِيعُ فَلَا أَنْتَ حَصَلْتَ هَذَا وَلَا ذَا

بل ابدأ، وستعرف طريقك بعد ذلك إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فهذه العلوم الخمسة - النحْو، والصَّرْف، والبلاغة، ومتن اللُّغة، والأدب - هي أهمُّ علوم العربيَّة.

وبعدها علومٌ أخرى من علوم العربيَّة كالعروض والقافية؛ التي تعرف بها صحيح أوزان الشُّعر العربيِّ وفاسدها، وعِلْم الإِملاء الَّذي لا يَسْتَغني عنه كاتب، إلَّا أنَّ العلوم السَّابقة أهمُّ علوم العربيَّة.

ولعلِّي قد أطلت، هذا والله تعالى أعلم، وأسأل الله تعالى أن يرزقنا جميعاً العِلْم النَّافع، والعمل الصَّالح، وأن يُعيننا على ذِكْره وشُكره وحُسن عبادته.

والحمد لله ربِّ العالمين

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

